

قراءات كتب عربية

ثقافة الاستسلام

قراءة نقدية في كتابات كنعان مكية
وحازم صاغية وصالح بشير
والعفيف الأخضر وأمين المهدي

بلال الحسن

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2005.
284 صفحة.

ما إن أعلن ولیم کریستول* في 20/3/2003 أن "هذه الحرب [أي الحرب على العراق] غايتها إعادة صوغ الشرق الأوسط وتغيير الثقافة السياسية في المنطقة بكاملها" حتى شرع بعض المثقفين العرب فوراً في تغيير أفكارهم ومواقفهم. وحينما كشف كولن باول في سنة 2003 عن "المبادرة الأميركية للشراكة الديمقراطية مع العالم العربي" قائلاً إن الولايات المتحدة الأميركية أرصدت 30 مليون دولار لهذه المبادرة، وإن هذا المبلغ سينفق على تحويل مجموعات من المثقفين العرب إلى مناصرين لخطة الولايات المتحدة، بدأنا نرى ونسمع ونقرأ كتباً ومثقفين من عيار توماهوك وكروز وب - 52. أما الإنجيل الأميركي الجديد الذي راح يعتنقه هؤلاء المثقفون أفواجاً أفواجاً، فمن آياته البينات ما يلي:

- الشعوب العربية غير قادرة على خلع المستبدين، فلا خيار أمامها إلا التعاون مع الولايات المتحدة الأميركية.
- السيطرة الأميركية على المنطقة العربية أفضل كثيراً من الدكتاتورية، لأن هذه السيطرة تفتح نوافذ للحرية، بينما أغلق الاستبداد جميع المنافذ تماماً. وبهذا المعنى فإن السيطرة الأميركية هي تحرير للعرب من طغيان حكامهم.
- إن الولايات المتحدة تحمل معها لشعوب المنطقة مشروعاً للديمقراطية ووعداً بالتقدم العلمي والازدهار العمراني والرخاء الاقتصادي.

لا ريب في أن بعض هذه الأفكار والدعايات يمتلك قوة سجالية عالية؛ فالدكتاتوريات العربية لم تترك للمواطن العربي أي خيار ممكن إلا خيار الاستنجا بالولايات المتحدة الأميركية. لكن، في ما يتعدى الأفكار ذات الطابع الترويجي، فإن فهم الواقع لا يكمن في هذه السجلات وإنما في ما تريده الولايات المتحدة حقاً من هذه المنطقة، أي في الأهداف الحقيقية التي تتطلع الولايات المتحدة إلى تحقيقها في بلادنا في إطار استراتيجيتها الكونية. وفي معمعان هذه السجلات التي احتدمت في السنوات الثلاث الأخيرة صار الانحطاط ثقافة، وشاعت ثقافة الهزء من الحركات المناوئة للسيطرة الأميركية الجديدة، وثقافة تسخيف القيم الإنسانية ومبادئ العدالة الاجتماعية، وتحقير الأفكار النقدية. كذلك فشلت ثقافة الحط من الشعر العربي ذي المحتوى الفلسفي أو التأملي أو المستقبلي، ومن الغناء العربي في عصره الذهبي، وراح التركيز ينصب على شعر التفصيلات اليومية الذي جاءت حصيلته، للأسف، مجرد "سلطنة" يومية معادية للسمو الفني، وضحلة في التجربة الإنسانية الفردية وفي المغامرة الشعرية معاً.

إن انتقال المثقفين العرب من حال إلى حال ليس أمراً طارئاً أو غير مسبوق. فمع انهيار الفكر القومي الرومانسي التقليدي في سنة 1967 حاول بعض القوميين العرب تجديد شبابهم بالتحول إلى اليسار. ومع أن اليسار كان دائماً موجوداً إلا أنه كان، هو أيضاً، يساراً رومانسياً وتقليدياً وسلطوياً. لهذا التحق كثيرون من "الشبان الجدد" باليسار الجديد واعتنقوا أفكار الكفاح المسلح. ومع انحسار أفكار الثورة والكفاح المسلح منذ سنة 1982 فصاعداً، أعاد هؤلاء الخائبون تجديد شبابهم بالالتحاق بالتيار الإسلامي الصاعد آنذاك. ومع سقوط الاتحاد السوفياتي في

سنة 1990 راح العديد من اليساريين يحتمي بالليبرالية، بينما سارع كثيرون إلى الانسواء تحت عباءة الولايات المتحدة الأميركية.

اتهام ومتهمون

يؤكد بلال الحسن في كتابه "ثقافة الاستسلام" أن هذا الكتاب هو مناقشة لـ "أفكار تعمل بوعي من أجل هدم عوامل الصمود الذاتي في وجه الهجمات الاستعمارية الخارجية. أفكار تتبنى الأجنبي والمحتل وتمهد الطريق لقدمه وسيطرته. ومن هنا كان النقاش معها من أجل فضح زيفها" (ص 13).

إن هذا الكلام خطر جداً بالفعل. فهو ينقل النقاش من المستوى الفكري إلى المستوى السياسي، وهو، في أحد وجوهه، حكم بالخيانة يصدره بلال الحسن على الذين يختلف وإياهم في المواقف السياسية. ومهما يكن الأمر فإن بلال الحسن يعود، ولو بصيغة أكثر رحمة، ليقول: "لقد اخترت أن أناقش نوعاً خاصاً من الأفكار، يبدو في ظاهره ثورياً وراديكالياً وحادثياً، ولكنه في العمق مغرق في الرجعية وفي الدعوة لتدمير الذات. فكر يجاهد لكي يصوغ نظرية تبرر الانحناء أمام كل مستعمر، وتعتبر خطيئة المستعمر نابعة من ذاتنا نحن، نحن الذين يجب أن نتبدل لكي تصبح نظرتنا إلى المستعمر نظرة إيجابية" (ص 14).

يقول جوزيف مسعد، في صحيفة "الحياة" (2002/12/30)، إن العنصريين الأميركيين البيض ما عادوا قادرين على توجيه اتهاماتهم إلى خصومهم السود بشكل مباشر، فسعوا لإبراز طائفة من الباحثين السود تتبنى نظرية "عقدة الاضطهاد"، وتحمل الأسود نفسه مسؤولية تخلفه، وتعفي العنصرية البيضاء من هذه المسؤولية. هنا، في هذا الحقل من السجال السياسي، رأى بلال الحسن أن كنعان مكية وفؤاد عجمي هما من هؤلاء الباحثين "السود"، ولهذا انصب نقده على "فضح زيفهم" المعرفي والفكري معاً.

مكية وعجمي: المزامير الجديدة

يتفق كنعان مكية وفؤاد عجمي في عدة أمور فكرية وسياسية أبرزها: الحط من شأن العرب ونبذ فكرة العروبة. ويبدو أن الخطاب السياسي الذي يتبناه هذان الكاتبان ملفوف بملاءة علمانية وحادثة، بينما هو، في جوهره، خطاب مغرق في رجعيته وطائفية. يقول كنعان مكية: "إن نظاماً علمانياً عراقياً يغلب عليه التشيع سيكون عراقياً بحثاً في توجهاته، وأقل ميلاً إلى المغامرة على الصعيد السياسي... إن حكومة يهيمن عليها العلمانيون الشيعة ستكون أقل انجذاباً نحو القضايا القومية [العربية] من الأنظمة العراقية السابقة، فالعروبة هي شأن سني إلى حد بعيد" (ص 21).

أما فؤاد عجمي (مواليد الجنوب اللبناني سنة 1945) فيخطط حذاه بالإبرة نفسها، ويجهر بالقول إن "القومية العربية هي هيمنة سنية متسرلة بثوب علماني"، ثم يجزم أن العروبة لوثت حياة العراق السياسية ولم تكن إلا سوطاً في يد "الأقلية (السنية) تستخدمه للسيطرة على البلاد وتجريد الطوائف الأخرى من حقوقها ومطالبها العادلة والمشروعة" ("وجهات نظر"، العدد 50، آذار/مارس 2003). ومع أن عنصرية فؤاد عجمي لا تخلج من اتهام العرب بأنهم "ليسوا جديرين بالديمقراطية"، وأن "من غير الممكن تصديق أي شيء يقوله عربي" (صبحي حديدي، "السفير"، 1998/5/28)، فإن مثل هذه العبارات تفضح ما يريد فؤاد عجمي إخفاءه، أي شعوره بالدونية الأقلوية التي طالما نهشت فؤاده لأنه أعجمي من أصول غير عربية. ولعل هذه الدونية الطائفية حملته على الإمعان في الحط من شأن العرب والعروبة. وعلى هذا الغرار انهمك كنعان مكية في نبذ العروبة بقوله: "يجب أن يكون [العراق] لجميع أبنائه مما يتطلب أن يكون عراقياً غير عربي".

لماذا؟ هل لأن فيه أكراداً وتركمناً مثلاً؟ إن العراق عربي، مثلما هي فرنسا فرنسية على الرغم من وجود ستة ملايين من المسلمين ومن القوميات الأخرى فيها. لكن، لو بقي الأمر عند هذا الحد لهانت المسألة؛ فكنعان مكية تجاوز حدوده حينما راح، وهو مواطن عراقي، يتقرب من إسرائيل بطريقة مهينة، وتمكن من زيارتها عدة مرات حتى منحه جامعة تل أبيب الدكتوراه الفخرية سنة 2003. وكان كنعان مكية مهد سبلاً إلى إسرائيل عندما أصر على تبرئة شبكة التجسس الإسرائيلية التي اعتقلت في بغداد سنة 1968، وطالما دعا الفلسطينيين إلى نسيان الماضي ونسيان التاريخ: "علينا أن ننبد في شكل نهائي السياسات القائمة على التشبث الموهوس بالتاريخ وما فيه من مظالم" (ص 29).

حازم صاغية وصالح بشير

يتعقب بلال الحسن كتابات حازم صاغية ومقالاته بدقة، ويترصد عباراته وفقراته خطوة خطوة، ويحاول أن يفكك، بطريقة النقائض، معظم الفرائض التي صاغها صاغية مع زميله صالح بشير، ثم يتهمة بأنه كتب عدة مقالات بالاشتراك مع صالح بشير انطلاقاً من أفكار كنعان مكية (ص 47).

إن لائحة الاتهام التي يفردها بلال الحسن لكل من حازم صاغية وصالح بشير طويلة جداً، ويمكن إيجازها بالتالي:

- الترويج للاستعمار.
- هدم فكرة الوحدة العربية.
- التطبيع.
- الترويج للتراجع السياسي.
- الدعوة إلى اليأس وهدم فكرة الثورة.
- تهميش القضية الفلسطينية والتلهيل لشارون.
- التآرجح بين الأفكار.

يقول بلال الحسن إن حازم صاغية يروج فكرة مضمونها أنه "يجب النظر إلى وجود إسرائيل كحق وليس كأمر واقع نتعامل معه. إسرائيل لها الحق في الوجود في المنطقة العربية كما للسوريين واللبنانيين والعراقيين، لأن وجودها هو من نتائج الحرب العالمية الأولى كما أن وجود لبنان وسورية والعراق (كدول) هو من نتائج تلك الحرب" (ص 126). ويرى بلال الحسن "أن الهدف الفعلي لحازم صاغية هو أن يهاجم كل جهة تناضل ضد إسرائيل" (ص 97)، وهدفه "إعفاء الاستعمار من مسؤوليته، وإعفاء الصهيونية من جريمتها" (ص 94)، ويتهمة بأن ما هو مهم لديه هو "إرضاء إسرائيل وإنجاز السلام معها بأي ثمن" (ص 88). ويضيف بلال الحسن: إن التطبيع الثقافي الذي يدعو إليه صاغية وبشير يستجيب لتحليل بنيامين نتنياهو في كتابه "مكان تحت الشمس"، وهو يهدف إلى إلغاء التاريخ تحت ستار المراجعة وإلى "نسيان الألم" كما يريد كنعان مكية (ص 57). وأبعد من ذلك فهو يتهمة مقالات حازم صاغية بأنها "تنضح بنزعة تميل إلى التشهير والشماتة والقسوة اللغوية" حينما يتعلق الأمر بالمواجهة مع إسرائيل أو بالانتفاضة الفلسطينية، ولهذا فهو يعتبر نقد حازم صاغية، في هذا المجال، "نقداً مغشوشاً" (ص 70)، ويعيب عليه أنه يدين المواجهة مع الاستعمار، وأنه يرى في الانتفاضة حركة ضد حادثة إسرائيل، وما الانتفاضة إلا "امتداد لمنهج عربي وقف ضد الاستعمار (الغرب) رافضاً الحادثة التي يمثلها الغرب" (ص 61)، لهذا لا يستغرب أن يردد حازم صاغية أن الرئيس أنور السادات "نجح في استعادة أرض مصر ليس لأنه قاتل وانتصر في حرب تشرين الأول (أكتوبر) 1973، بل لأنه تخلى عن مشروع مصر الكبرى الذي رعاها الرئيس عبد الناصر" (ص 88).

العفيف الأخضر

إن لائحة الاتهام "الحسنية" ضد العفيف الأخضر طويلة جداً. وربما يمكننا إيجازها بالنقاط التالية:

- التحريض ضد حق العودة.
- تشويه تاريخ فلسطين.
- استخدام فرويد بدلاً من ماركس.
- الدعوة إلى التماهي مع الجلال.
- هجاء الثورة: نظرية في الاستسلام.

ينتقي بلال الحسن فقرات من مقالات للعفيف الأخضر تعكس موقفه من قضية اللاجئين ومن حق العودة، فتبدو كأنها أقرب إلى مواقف التيارات "اليسارية" الإسرائيلية. فالعفيف الأخضر يقول إن "عودة معظم اللاجئين إلى ديارهم مستحيلة..." [و] العراق يمثل إمكانية واعدة لتوطين اللاجئين، وهناك إمكانية أخرى للتوطين في أستراليا وكندا والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي. ويضيف الأخضر: "أسطورة أن اللاجئين لن يقبلوا عن أرض فلسطين، التي لم يولد معظمهم فيها، بدلاً، لا يصدقها مروجوها أنفسهم". ويؤكد العفيف: "أن مواطن عصر العولمة مواطن عالمي، يستبدل وطنه كما يستبدل حذاءه" (ص 168). ثم أن بلال الحسن يأخذ على العفيف قوله: إن "حلم الإسلاميين باسترداد فلسطين كلها، وحلم قيادة السلطة الفلسطينية بإقامة دولة كاملة السيادة" هما حلمان "وهميان، لأنهما لا يندرجان في سياق الممكن التاريخي إقليمياً ودولياً" (ص 193).

إن إدراج العفيف الأخضر جنباً إلى جنب مع كنعان مكية وأمين المهدي أمر لا يستقيم بتمامه أبداً. لنلاحظ أن بلال الحسن قال عن حازم صاغية إنه "يحظى بصفات شخصية إيجابية، فهو نظيف وصادق وذكي وودود وقلق" (ص 65). لماذا لم يقل ما يشبه هذا الكلام عن العفيف الأخضر، وهو أحد المناضلين في صفوف الثورة الفلسطينية، ومن الذين ساهموا في صوغ كثير من أفكار اليسار الفلسطيني؟

إذا كان كنعان مكية وفؤاد عجمي يتفقان على الخط من شأن العرب وعلى نبذ العروبة، فإن العفيف الأخضر ليس من هذا الغرار، إنما هو كاتب منهمك في نقد انحطاط الاستبداد العربي والنظم العربية العسكرية والحركات التأخيرية العربية وقوى التعصب العنصري. وشتان بين هذا وذاك. ولعل العفيف الأخضر ظلم نفسه كثيراً بدفاعه عن البورقبيبة وعن أفكار السلام الرائجة، ولم ير حرجاً في وضع اسمه إلى جانب شاكر النابلسي وأمثاله. غير أن دفاعه عن البورقبيبة، بحسب ما أرى، هو مدخل للانقضاض الفكري على التيارات الإسلامية الهمجية، وليس دفاعاً عن البورقبيبة بحذافيرها. أمّا أنه يروج للتصور الإسرائيلي لمسألة اللاجئين ففيه بعض المبالغة في التأويل، لأن التصور الذي عرضه العفيف ليس إلا التصور الذي وضعته اللجنة المتعددة الأطراف الخاصة باللاجئين، والمنبثقة من مؤتمر مدريد، والتي ترأسها كندا. وهذا التصور يتبناه كثيرون من الفلسطينيين كما هو معروف.

إن موقف العفيف الأخضر من مسألة اللاجئين ما زال أعلى من وثيقة جنيف مع اختلافنا التفصيلي مع الاثنين. ومع ذلك، ما زلت أعتقد أن العفيف الأخضر ما برح ماركسياً مجالسياً مع بعض التعديل. لكن الانهيارات الكبرى في حقل الأفكار، ويقظة الهويات والعصبية، واكتساح العولمة العالم بأسره، جعله، ذلك كله، يتكلم لغة معدلة، لكن جوهرها لم يتبدل كثيراً. فالعفيف ما زال ضد الأصوليات القاتلة والسلفيات القومية والدينية، وما زال ينافح عن العدالة الاجتماعية وعن الحرية. أمّا التبدل في بعض مواقفه فهذا أمر منطقي لأن المفكر، في نهاية المطاف، ليس كائنًا ميتافيزيقياً لا يتغير ولا يتبدل مثل عرّاف القبيلة في المجتمعات البدائية، بل هو كائن تاريخي تجري عليه القوانين المتغيرة للتاريخ والاجتماع. والفكر في عرف المؤسسات الدينية إنما يعني العقيدة، أي أنه ضرب من ضروب الإيمان. لهذا فإن تغيير الأفكار في حساب هذه البنية الذهنية الدينية يعادل تغيير الدين، وتغيير الدين يعني الردة، وحد الردة القتل. لكنني لا أعتقد أن بلال الحسن أراد قتل العفيف الأخضر. غير أنه ظلمه حينما جعله في صف أمين المهدي ومهازله، هذا الذي لم يتورع عن الابتذال عندما ادعى أن الصهيونية جاءت إلى بلاد العرب "بأيدولوجية خلاصية شعبية، وهنا تكمن دوافعها وجوانبها الإنسانية... وسلكت الصهيونية في التنفيذ مسلكاً علمانياً عقلانياً مؤسسياً وديمقراطياً" (ص 260).

* * *

إن كتاب بلال الحسن "ثقافة الاستسلام" يعيد، بلا شك، الحيوية إلى أدب السجال، وإلى زمن المعارك الفكرية والأدبية والسياسية الذي تراءى لنا أنه زمن مضي وانقضى. وبهذا المعنى قرأت هذا الكتاب.

صقر أبو فخر

(*) محرر مجلة "ستاندرد" الأسبوعية الأميركية، وهو يهودي أميركي ذو تأثير قوي في أفكار الرئيس جورج بوش وديك تشيني ودونالد رامسفيلد.

(*) عمان: دار الجليل، 1995.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي

التالي: majallat@palestine-studies.org

يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:

http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx